

جحيم الغوطة

الكاتب : محمد عبار

التاريخ : 9 مايو 2016 م

المشاهدات : 6445



أشجار مكسرة.. زروع محقة.. بيوت مهدمة.. أنقاض وأطلال على مد البصر.. عيون أغورقت بالدموع، والرؤبة صارت

على ضوء الشموع.. شم النسيم العليل بالعجاج يفوح..

لم يتمكن أبو محمد من منع الدموع ألا تسيل على وجنتيه عندما راح بروي قصته في جحيم الغوطة التي كانت يوماً ما تغنى بالطيور المغفرة، وبجمالها وعطر ورودها.. تشق الآفاق بأريجها.. تمنع الأنظار برونقها.. تشد الأرواح برياحينها.

الآن ما عاد يُسمع سوى تغريد طائرة المبعث! بدويها وانفجارات قذائفها! ما وجد غير جسمه يغطي به أطفاله الزغب النحال، يحميه مما يوجد به طائر معدني! حلق في السماء قبل أن يهبط المساء:

بينما نحن على هذه الحال أعاود لقطات من النظر في وجه أم أطفال كالح، أكل الرعب كثيراً من نضارته التي كانت في الماضي.. إذا بشاب من الرجال الأشاؤس يدفع بباب الدار بقوة يعالجه حتى إذا قدر على خلعه ركبنا نحونا مناديأ: هيا قوموا معى لا تبقوا هنا.. البقاء هنا خطير عليكم.

أخذ يشدن بعنف حمل اثنين من الأولاد، أنا وزوجي تكفلنا بالثالث، رحنا نعدو معه مئات الأمتار، كلانا يلهث.. كدنا ننكمي على وجوهنا من شدة الإرهاق، عبر بنا قبو بناء، أودعنا المكان إلى جانب من غصت بهم القاعة، غادرنا مسرعاً وهو يقول: أنا ذاهب لإنقاذ أسرة ثانية بعون الله.. سأعود إليكم سريعاً.

مضى جل النهار ثم هبط الليل بعتمته ودجاه لكن ذلك الشاب الشهم لم يعد، تناولنا شيئاً من الزاد مع الآخرين.. عل ذلك الطعام القليل يقيم صلبنا ويعيننا على البقاء على قيد الحياة.. منذ يومين لم نذقه نحن وأطفالنا المساكين. ما كان للنوم أن يداعب أجفاناً قرحاها السهاد وعيوناً محمرة من النحيب والبكاء. أصبح الصباح ولم نك نصدق أننا ما زلنا على قيد الحياة.

حتى الساعة لم يخترق طائر الدمار جدار الصوت، خرجنا نتنفس قليلاً من الهواء الطلق قبل أن يخالطه التراب ويمتزج بالغبار، تجولت قليلاً في الشارع، يا إلهي ماذا أرى؟! الرجل الشهم الذي أنقذنا ملقي على القارعة تناثرت من شبابه الأشلاء.. بجواره أفراد عائلة أخرى.. أجساد ممزقة وأيدٍ مبتورة وبركة دم قد جف من البارحة، هكذا نُقتل بسلاح دفعنا ثمنه من عرق جبيننا.. من قوت أطفالنا، لا أراكם الله مكروهاً مثلما رأينا في هذا اليوم والأيام السالفة، هكذا جمال الغوطة ببساطتها الغناء تحولت إلى جحيم من نيران ودمار وركام!

ناديت بعض رجال القبو ومن النساء من هن قادرات، يتعاونن كل اثنين على حمل حرام قديم ضم مجموعة أعضاء لشهيد واحد كي نواريهم التراب في شق طويل سلف إعداده من سائق جرافه متقطع قبل أن تصاب آليته بصاروخ مقين.

بيدي دفنت الشاب العشريني، مزق جسده صاروخ أعمى، رماه والعائلة التي معه عربيد أصم أخرق.

ما كدنا نفرغ من مهمتنا المضنية المبكية حتى جاءنا الطائر الأسود من جديد يتصدى فريسته الدسمة، تفرق شملنا سراغاً، متّا من ألقى نفسه بين الأنفاس، آخرون اختبؤوا خلف الأحجار.

سقطت براميل في فراغ وأخرى أصابت أبنية متارجحة لم يكتمل سقوطها حتى اليوم.

كان لا بد من الإجهاز عليها مثل ذبيحة ظلت تصارع مصيرها بين حياة وموت.

بعدما انصرفت غرائب الموت هرعنا راكضين من حلوة الروح إلى مخبئنا الذي اختاره لنا المرحوم الشهيد الفذ الحي في قلوبنا، ستبقى ذكراه مرافقة لنا ما حيبنا وأنّى نذهبنا.

ما زلنا ننتظر الخروج من وسط الجحيم الملتهب والركام المنحدر.

أجيال ناظري في البطاح وأرسله نحو الآفاق وراء الركام والدماء والأشلاء..

أرقب يوماً تغمر بلادنا ظلال حرية ونسمات سلام.. خضراء وسلامية وما زلال.

